متى وكيف أخترع الشعب اليهودي؟

د. محمد عبد العزيز ربيع

صدر في أوائل العام الحالي 2008 كتاب جديد في إسرائيل باللغة العبرية تحت عنوان "متى وكيف أخترع الشعب اليهودي"، وقام الأستاذ الجامعي والمؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند بتأليفه. ولغرابة عنوان الكتاب وأهمية ما جاء فيه من معلومات جديدة، فإن الكتاب أثار تساؤلات كثيرة وضجة كبيرة في إسرائيل وفي الأوساط اليهودية عامة. وبسبب تلك التساؤلات وما جاء في الكتاب من حقائق علمية وتاريخية هامة تنفي وجود شعب يهودي في الماضي، تكشف أكاذيب إدعاءات الحركة الصهيونية ، فإن جريدة هاآرتس الإسرائيلية قامت بإجراء مقابلة مع المؤلف نُشرت بالإنجليزية على موقع الجريدة على الإنترنيت يوم 21-3-2008 تحت عنوان "تحطيم أسطورة وطنية لشعب" (Shattering a National Mythology). ومن خلال تلك المقابلة، قام الدكتور شلومو ساند (Shlomo Sand) الذي يعمل أستاذا في جامعة تل أبيب بتدمير حكايات شعبية يهودية وكشف أكاذيب لم يكن قد تم الكشف عنها في الماضي، ومنها حكاية سبي اليهود على أيدي الرومان، وتشتتهم في كافة بقاع الأرض وعودتهم إلى مكان لم ينتموا إليه أبدا. ويثبت الدكتور ساند في كتابه أن مؤسسو الحركة الصهيونية قاموا بتلفيق تلك الحكايات والخرافات لتبرير استيلائهم على فلسطين واستيطان أرضها وطرد شعبها منها. إلا أن زوبعة النقد والغضب التي أثارتها المقابلة في الأوساط الأكاديمية والسياسية أجبرت الجريدة على سحب تلك المقابلة ولم يكن قد مضى على نشرها سوى أسبوعين فقط. إلا أن الكتاب الذي بدا مهددا بالسحب من السوق أيضا نجا من الخطر ليغدوا واحدا من أكثر الكتب رواجا في إسرائيل، ويقال أنه الآن يترجم إلى أكثر من لغة منها العربية والإنجليزية والفرنسية. إن من يريد الحصول على نسخة أصلية وكاملة من المقابلة باللغة الانجليزية عليه زيارة موقعنا على الانترنيت المذكور أدناه، حيث سيجدها في زاوية مشاركات خارجية.

يقول الدكتور ساند أن اليهود الذين يعيشون اليوم في فلسطين وفي أماكن أخرى من العالم ليسوا من نسل اليهود الذي سكنوا في فلسطين في العهود القديمة التي رافقت وسبقت ظهور المسيحية، وإنما ينحدرون من جماعات عديدة مختلفة الأصول والأعراق اعتنقت اليهودية عبر التاريخ وكانت تسكن أساسا في منطقة البحر الأبيض المتوسط وفي المناطق المجاورة لها. ومن نسل تلك الجماعات التي اعتنقت اليهودية قديما، جاء يهود اليمن ويهود شمال افريقية ويهود إسبانيا ويهود أوروبا الشرقية. وهذا يعني أن يهود العالم لم يشكلوا في الماضي شعبا واحدا، وأنهم، بسبب اختلاف أعراقهم وأصولهم، لا يشكلون اليوم شعبا بالمعنى المتعارف عليه دوليا، وبالتالي لا يتمتعون بأي حق من الحقوق الوطنية التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة، ومنها حق تقرير المصير وإقامة دولة خاصة بهم، وحق الاستقلال والسيادة الوطنية. إن حال اليهود يشبه تماما حال المسيحيين وحال المسلمين وحال البوذيين وغيرهم باعتبارهم أتباع ديانة واحدة، ولكن ينتمون لبلاد متعددة وينحدرون من أجناس وأصول عرقية مختلفة لا تشكل فيما بينها شعبا واحدا أو أمة واحدة، بل شعوبا أو أجزاء من شعوب وأمم معددة.

يقول الدكتور ساند أن الخرافة التي اخترعها الصهاينة الأوائل فيما يتعلق بوجود شعب يهودي قديم دفعتهم لممارسات عنصرية ضد الآخر، حتى ضد اليهود الذين يختلفون معهم في الرأي، وذلك على ما يبدو لطمس الحقيقة وحرمان مجهر العلم من الاقتراب من تلك الخرافة وكشف حقيقتها. "لقد مرت أيام كان فيها كل من يقول بأن اليهود ينتمون لشعوب ذات أصول غير يهودية يتعرض فورا للاتهام بمعاداة للسامية". إن اليهود الذين تصفهم الحكاية الصهيونية بأنهم شعب واحد عاش في المنافي في عزلة عن الغير، وأنه "تاه

وتشتت وعبر بحارا وقارات ووصل نهاية الأرض، ثم عاد مع ظهور الصهيونية بأعداد كبيرة إلى الوطن اليتيم [ليست إلا] أسطورة شعبية" لا أساس لها من الصحة. إن محاولة اختراع شعب يهودي دفعت مؤرخو الحركة الصهاينة إلى كتابة تاريخ يصف اليهود بأنهم شعب تشكل منذ بدايات التاريخ، وأن "البراعم الأولى للقومية اليهودية تفتحت في ضوء الشعاع القوي الذي جاء من أسطورة مملكة داوود". وفي نفيه لهذه الأسطورة، يقول الدكتور ساند أن فكرة الشعب اليهودي لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر، وذلك حين قام بعض المثقفين من يهود ألمانيا، متأثرين بالحركة القومية الألمانية التي ألهبت حماس الجماهير في حينه، بالعمل على اختراع شعب يهودي حديث. ومنذ تلك الأيام "بدأ المؤرخون اليهود بكتابة كتب تصف تاريخ اليهودية على أنه تاريخ شعب كانت له مملكة، وأنه تحول إلى شعب من الضائعين، وعاد أخيرا إلى موطنه الأصلي".

كانت بداية البحث، كما قال الدكتور ساند، هي الاطلاع على بعض كتب التاريخ الحديثة في محاولة للتعرف على الطريقة التي تم بها اختراع حكاية الشعب اليهودي، لكن التناقضات التي وجدها في تلك الكتب كانت كثيرة، مما دفعه لمواصلة البحث دون معرفة مسبقة بنهاية الطريق ولا بنتائج البحث المتوقعة. ولهذا يقول ساند، "عدت إلى الكتب القديمة وحاولت تحليل المراجع الأصلية التي اعتمد عليها مؤلفو العصور القديمة وما كتبوه عن التحول إلى اليهودية"، أي ما كتبه مؤرخو العصور القديمة عن التبشير اليهودي وقيام رجال الدين من اليهود بمحاولات إقناع الغير من الناس بترك دياناتهم واعتناق اليهودية. ويضيف الدكتور ساند القول بأن دهشته كانت كبيرة جدا حين اكتشف أن تاريخ اليهود وتاريخ اليهودية كما كُتب في القرنين الأخيرين لا أساس له من الصحة، بل ويتناقض تناقضا تاما مع ما جاء في الكتب اليهودية والمسيحية القديمة.

وهنا يتعرض شلومو ساند إلى حكاية "الشتات" والسبي على أيدي الرومان، وهي الحكاية التي تمحورت حولها إدعاءات الصهيونية بحق اليهود في العودة إلى فلسطين، حيث يكتشف أنها أيضا حكاية مختلقة لم تحدث إطلاقا. تقول مقدمة إعلان الاستقلال الذي صدر في فلسطين في عام 1948 عن زعماء الحركة الصهيونية أن اليهود، "وبعد أن تم تهجيرهم بالقوة من البلاد [فلسطين] بقوا مخلصين لها طوال فترة وجودهم في الشتات، وأنهم لم يتوقفوا قط عن الصلاة والأمل في العودة إليها واستعادة حريتهم السياسية". إن اختراع حكاية السبي والتهجير، كما يقول المؤرخ الإسرائيلي، كانت ضرورة "لتشكيل ذاكرة جماعية طويلة تتخيل شعبا أو قوما ينحدر مباشرة من الناس الذين عاشوا في زمن ظهور الإنجيل". لكن دهشة الدكتور ساند كانت عظيمة حين اكتشف أنه لا توجد كتب قديمة ولا مراجع علمية تتحدث عن السبي والتهجير، والسبب في ذلك" أنه لم يقم أي طرف بتهجير سكان تلك البلاد. إن الرومان لم يطردوا أحدا، وإنه لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك حتى لو أرادوا".

وفي إجابة على سؤال حول ما إذا كان الفلسطينيون هم في الحقيقة من نسل أولئك الناس الذين سكنوا البلاد في العصور القديمة، ما دام أن الرومان لم يقوموا بطرد السكان وتهجيرهم، قال ساند: "لا يمكن أن يحافظ شعب على نقائه العرقي عبر آلاف السنين.. لكن الصهاينة الأوائل، وحتى الثورة العربية (1936-1939) كانوا يعرفون أنه لم يكن هناك سبي ولا تهجير، وأن الفلسطينيين ينحدرون من سكان البلاد الأصليين.. حتى إسحاق بن تسيفي، ثاني رئيس لدولة إسرائيل، كتب في عام 1929 يقول "إن الغالبية العظمى من الفلاحين والمزارعين [الفلسطينيين] لا تعود أصولهم إلى العرب الذين قاموا بفتح [فلسطين]، وإنما إلى من هم أقدم من ذلك بكثير، إلى الفلاحين اليهود الذين تواجدوا بكثرة في تلك البلاد وشكلوا أغلبية الناس الذين قاموا ببنائها". إلا أن بن تسفي Yitzhak Ben Zsvi الذي كان يعتقد بأن عرب فلسطين هم أحفاد اليهود والإسرائيليين القدامى، لم يتورع عن المشاركة في عمليات التطهير العرقي التي تسببت في طردهم والمطالبة بمصادرة أملاكهم. قال بن تسفي بعد أن توقفت عمليات التطهير العرقي مؤقتا في عام 1948، إن وجود حوالي 100 ألف عربي في إسرائيل يعتبر أمرا خطيرا، "وإن الجاليات اليهودية في

الخارج والقادة الذين يجمعون لنا التبرعات سوف يغضبوا إذا علموا أننا استولينا على 400 ألف بيت من العرب، لكن لم نستخدم منها لإسكان المهاجرين [اليهود] سوى 70 ألف بيت فقط، إن علينا أن نستغل كل الممتلكات المصادرة في الحال". ولقد كان من نتائج ذلك التوجه وتلك الدعوة قيام مئات الجنود اليهود بالاعتداء على من كان قد تبقى من العرب في بلادهم، وسرقة ممتلكاتهم ونهب بيوتهم.

إذا كان اليهود لم يُطردوا من بلادهم وبالتالي لم يتشتتوا، فكيف ظهر ملايين اليهود حول منطقة البحر الأبيض المتوسط؟ كان هذا هو السؤال الرئيسي الذي حاول للدكتور شلومو ساند الإجابة عليه، إذ قال "إن اليهود لم ينتشروا، إنما الديانة اليهودية انتشرت. لقد كانت اليهودية ديانة تبشيرية. وخلافا للمتعارف عليه شعبيا، كان هناك تعطش كبير لنشر اليهودية وإقناع الغير بالتحول عن دياناتهم إليها.. لكن بعد انتصار المسيحية في القرن الرابع الميلادي، توقفت عملية التبشير اليهودي في العالم المسيحي، وقامت أعداد كبيرة من اليهود على ما يبدو بالتحول إلى المسيحية. إلا أن عملية التبشير استأنفت نشاطاتها في المناطق القريبة مثل اليمن وبين شعوب وثنية مثل شعوب شمال افريقية. ولو أن اليهودية لم تتوسع في تلك المرحلة ولم تستأنف نشاطاتها التبشيرية، لبقيت اليهودية ديانة ثانوية، أو لكان من الصعب عليها أن تعيش" وتستمر حتى اليوم. وفي معرض مراجعته لتاريخ عملية التبشير وتحديد الجذور العرقية والبلاد المختلفة التي ينتمي إليها يهود العالم، يقول المؤرخ الإسرائيلي أن الديانة اليهودية قامت بالانتشار في العديد من البلاد المجاورة لفلسطين في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأن نشاطاتها اتجهت بعد انتصار الديانة المسيحية إلى التوسع في المناطق الجغرافية التي اعتنقت شعوبها ديانات وثنية مثل منطقة شمال افريقية، ومن هناك وصلت اليهودية إلى اسبانيا. لقد كانت نقطة البداية بالنسبة للدكتور ساند، كما يقول، هي توجيه سؤال لنفسه عن أصول الجالية اليهودية الكبيرة التي ظهرت في اسبانيا أثناء خضوع تلك البلاد لحكم المسلمين. وهنا اكتشف المؤرخ الإسرائيلي أن طارق بن زياد الذي قاد جيوش المسلمين وقام بفتح الأندلس كان ينتمي لإحدى القبائل البربرية التي عاشت في شمال إفريقية، وأن معظم جنوده الذين رافقوه في حملته وحاربوا معه كانوا من البربر أيضا، وأنه كان من بينهم أعداد كبيرة من اليهود.

أما فيما يتعلق بكيفية تحول أولئك البربر إلى اليهودية، فيقول الدكتور ساند أن بعض القبائل البربرية التي سكنت شمال افريقية، أي ما نطلق عليه اليوم المغرب العربي، كانت قد اعتنقت اليهودية في القرن السادس الميلادي، وأن هناك العديد من المراجع المسيحية تقول بأن الكثير من القوات التي حاربت الاسبانيين وهزمتهم كانت قوات بربرية اعتنقت اليهودية. وهنا يعود الكاتب ثانية إلى مراجع تاريخية قديمة ليقول بأنه كانت هناك ملكة بربرية اسمها داهية الكاهنة ظهرت في القرن الثامن الميلادي وقامت بتوحيد عدة قبائل بربرية يهودية في مملكة واحدة، وأنها تصدت لجيوش المسلمين الغازية، إلا تلك الملكة مُنيت بالهزيمة، وتم القضاء على مملكتها قبل قيام طارق بن زياد بحملته على الأندلس ب 15 سنة فقط. ويبدو واضحا لمن يتأمل اسم الملكة البربرية كما جاء ذكره، أن الاسم على ما يبدو كان لقبا أطلقه العرب عليها لذكائها وجبروتها، ومعناه "الكاهنة الداهية".

إن الأصول البربرية ليهود إسبانيا، وقيامهم بالمحاربة إلى جانب المسلمين تفسر أسباب المعاملة الخاصة التي تعامل بها العرب مع اليهود في الأندلس. لقد قام المسلمون بمعاملة اليهود في اسبانيا معاملة حسنة للغاية كانت أفضل بكثير من المعاملة التي وجدوها في ظل الدولة الأموية في منطقة المشرق العربي، حيث وصلت تلك المعاملة إلى حد المساواة في الحقوق والواجبات. ويعود ذلك على ما يبدو لوحدة الأصول والجذور والأنساب، وذلك لأن الانتساب لقبيلة واحدة في العرف العربي كان يحتم ولا يزال يحتم التعصب لأولاد العمومة. من ناحية ثانية، نلاحظ أن كل من اشتهر من يهود اسبانيا أثناء الحكم العربي كان يحمل اسما عربيا، وأنه قام باستخدام اللغة العربية في كتاباته الفلسفية وبحوثه العلمية، ومنهم ابن ميمون (Maimonides) الذي يعتبر أكبر مفكر يهودي على الإطلاق. إن الانتماء العرقي والاشتراك في لغة واحدة

يقود عادة إلى وحدة الثقافة وتشابه الأسماء، ويحتم التواصل والتكافل حتى وإن اختلفت المعتقدات الدينية وتباينت الطقوس والعادات والأعياد.

أما يهود اليمن فهم بقايا مملكة حمير التي اعتنقت اليهودية في القرن الرابع الميلادي وتحول معظم سكانها إلى الإسلام في القرن السابع الميلادي. إلا أن أهم وأكبر إضافة لأعداد اليهود عبر التاريخ جاءت، كما تقول دراسات ساند واستنتاجاته العلمية، نتيجة لقيام مملكة الخزر باعتناق اليهودية في القرن الثامن الميلادي، واتخاذ العبرية لغة مكتوبة لها. ولقد سيطرت مملكة الخزر في حينه على عدة شعوب ومناطق جغرافية واسعة امتدت من جورجيا إلى أوكرانيا، إلا أن قوتها أخذت في التراجع مع بدايات القرن العاشر، وأن جيوش المغول قامت باجتياحها وتدميرها في القرن الثالث عشر، مما تسبب في اختفاء اليهود وتفرقهم، حيث لم يعد يُعرف مصيرهم. وهذا يؤكد ما توصل إليه العديد من المؤرخين في القرنين التاسع عشر والعشرين من أن يهود الخزر هم أصل اليهود الذين ظهروا بأعداد كبيرة في مختلف دول أوروبا الشرقية، ومنها بولندة التي ظهر فيها في أوائل القرن الماضي حوالي 3 ملايين يهودي. ويعزز ساند استنتاجاته هذه بالقول بأن المؤرخ بن زيون دينور (Ben Zion Dinur) الذي يعتبر الأب المؤسس لعملية التأريخ الإسرائيلية، لم يتردد في وصف مملكة الخزر بأنها "أم الشتات" اليهودي في أوروبا الشرقية. وهنا يؤكد الدكتور ساند ما جاء في كتاب آرثر كوستلر (Arthur Khostler) الذي نشر قبل حوالي عشرين سنة وعنوانه القبيلة الثالثة عشر (The Thirteen Tribe). ويقول كوستلر في كبابه أن يهود أوروبا الشرقية ينحدرون من قبيلة محاربة جاءت من آسيا الوسطى وقامت بغزو مناطق واسعة اشتملت على أذربيجان وأرمينيا وما يسمى اليوم جورجيا وذلك قبل قيام روسيا وأنها اعتنقت اليهودية بعد أن تحولت إلى مملكة مستقرة.

هناك قصة طريفة لا أدري مدى صحتها، قرأتها قبل أعوام في أحد الكتب، تقول أن ملك الخزر أراد لشعبه اعتناق دين واحد بعد انتشار المسيحية ووصول اليهودية والإسلام إلى مشارف مملكته. ولذا أرسل مبعوثين عنه لإجراء اتصالات بممثلين عن الديانات السماوية الثلاثة. ولقد سأل ممثلوه، كما تقول الرواية، المسلمين عمن يؤمنون به من الرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد، أجابهم المسلمون بأنهم يؤمنون بجميع الرسل بما في ذلك محمد وعيسى وموسى، لكنهم يتبعون سنة محمد. أما المسيحيون، فقد قالوا بأنهم يؤمنون بعيسى وموسى فقط، ولا يؤمنون بمحمد، وأنهم يتبعون سنة عيسى. وقال اليهود حين سئلوا نفس السؤال أنهم يؤمنون بموسى ويتبعون سنته، ولا يؤمنون بعيسى أو بمحمد. وفي ضوء تلك المعلومات، قرر ملك الخزر اعتناق الديانة اليهودية لان موسى، كما تقول الرواية، كان الرسول الوحيد الذي اجمع عليه أتباع الديانات الثلاثة.

ويجيب الدكتور ساند على سؤال يتعلق بمدى خطورة فكرة أصول اليهود الخزرية على كيان إسرائيل مشيرا إلى أن الاعتراف بهذه الحقيقة يعني تقويض ادعاء اليهود بأن لهم "حق تاريخي في الأرض". إن الكشف عن أن اليهود ليسوا من فلسطين "يسحب البساط من تحت أقدامنا. منذ بداية مرحلة تصفية الاستعمار لم يعد بإمكان المستوطنين القول: إننا جئنا، وربحنا الحرب، وإننا هنا، وذلك كما فعل الأمريكيون والبيض في جنوب افريقية والاستراليون". إلا "أنني لا اشعر بالخوف من أن تلك الحقيقة من شأنها تقويض وجودنا، لأنني أعتقد أن سلوك دولة إسرائيل يعمل اليوم على تدمير ذلك الوجود بشكل أكثر خطورة.. من وجهة نظر الصهيونية، لا تعود هذه البلاد لمواطنيها، بل لليهود. إنني اعترف بتعريف واحد للشعب: مجموعة من الناس يرغب أعضاؤها في العيش معا بشكل مستقل ذا سيادة. لكن معظم يهود العالم لا يرغبون في العيش في دولة إسرائيل، على الرغم من عدم وجود عوائق تمنعهم من ذلك. ولهذا فإن اليهود لا يشكلون شعبا أو أمة بذاتها.. إذا لم تتطور إسرائيل في اتجاه بناء مجتمع مفتوح متعدد الثقافات، فإننا سوف نواجه كوسوفو في الجليل.. إن علينا أن نبذل جهودا كبيرة لتطوير هذا المكان إلى جمهورية إسرائيلية، حيث

الأساس العرقي والدين لا يعنيان شيئا أمام القانون.. إن كل من يعرف النخبة الشابة من عرب إسرائيل يعرف أنهم لن يوافقوا على العيش في دولة تدعي أنها ليست لهم.. لو كنت فلسطينيا لقمت بالثورة على مثل هذه الدولة، وبالرغم من كوني إسرائيلي، إلا أنني ثائر اليوم ضدها". وفي نهاية المقابلة يقول الدكتور شلومو ساند "إنني اقترح خفض عدد الأعياد الوطنية في إسرائيل وتخصيص ساعة بين عيد الجنود الذين سقطوا على الأرض وعيد الاستقلال لإحياء ذكرى النكبة".

كيف تعاملت مع هذه القضية في أواخر الثمانينات:

نشرت في أواخر الثمانينات أول كتبي الرئيسية باللغة الإنجليزية وكان موضوعه الاقتصاد السياسي للمعونات الأمريكية لإسرائيل. ولقد تعرضت في ذلك الكتاب لدور اللوبي الصهيوني في صنع وتوجيه سياسة أمريكا الخارجية، وكيفية نجاحه في تسخير تلك السياسة لخدمة مصالح الدولة اليهودية ودعم سياستها الاستيطانية التوسعية. كما قمت أيضا بتكوين فكرة الحوار الفلسطيني الأمريكي وصياغة الوثيقة التي تم على أساسها التفاوض السري بين الجانبين وصولا إلى اعتراف الحكومة الأمريكية بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء عملية الحوار معها. ولقد تسببت تلك النشاطات في زيادة عدد الدعوات التي تلقيتها لإلقاء محاضرات حول عملية السلام ومدى ما تحظى به تلك العملية من دعم على الساحتين الفلسطينية والعربية. ومع تزايد تلك النشاطات على الساحة الأمريكية، والتي كنت أقوم بها خدمة للقضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة، قمت بتطوير أكثر من موضوع محدد للحديث، كان أحدها مخصصا لمخاطبة المحافظين من المسيحيين واليهود.

كنت أبدأ محاضرتي بالقول بأن لدي إدعاءا محددا لا أستطيع أن أثبت صحته، ولكن لا يستطيع أي إنسان أن يثبت عكسه. وعلى افتراض أنني أقبل بما جاء في الكتب اليهودية والمسيحية القديمة بخصوص الوعد ألإلهي لبني إسرائيل، فإني، وبسبب كون جذوري وجذور أجدادي تعود إلى فلسطين التي لم نعرف سواها وطنا، فإنني أدعي بأن أصولي العرقية تعود لبني إسرائيل الذين وعدهم الله تلك أرض. ثم أضيف قائلا، إن علينا أن نتذكر دائما أن الوعد الإلهي لم يعط لليهود، أي لأتباع ديانة معينة، بل أعطي لقبائل معينة. وهذا يعني أننا، أبناء فلسطين من مسلمين ومسيحيين هم من اختارهم الله ووعدهم أرض فلسطين. إن الله لم يعطي وعدا لليهود، وبالتالي فإن من اعتنق اليهودية من غير بني إسرائيل كيهود أوروبا عامة، ليس لهم أي حق إلهي أو غير إلهي في فلسطين. وفي الواقع، جاء الوعد الإلهي لبني إسرائيل قبل اعتناقهم اليهودية، على ما يبدو لإغرائهم باعتناق تلك الديانة وإتباع موسى نبيا. لكن بعض أجدادي القدامى اعتنقوا المسيحية حين وصلت إليهم، واعتنق آخرون الإسلام فيما بعد، لكن هذا لا ينفي أبدا أحقيتهم، حسب الرواية التوراتية، في أرض فلسطين، ولا يضفي أي حق شرعي على يهود ليست لهم أصول تعود إلى أصحاب الوعد الإلهي. ومما يقوى احتمالات صحة هذا الادعاء أن هناك قبيلة كبيرة من يهود إسرائيل تحمل اسم "ربيع"، وعائلة كبيرة نسبيا من مسيحيي فلسطين من أهالي بير زيت تحمل نفس الاسم، وهو الاسم الذي تحمله عائلتي. وهذا يعني أن هناك احتمالا أن نكون جميعا من أصل واحد، بعضنا اعتنق اليهودية وبقي على دينه، والبعض الآخر اعتنق المسيحية، وآخرون اعتنقوا الإسلام.

بعد ذلك كنت انتقل لمناقشة أطروحة الصهاينة التي تقول: "وطن بلا شعب، لشعب بلا وطن"، مبينا مدى ما تتضمنه تلك المقولة من تناقضات لا يقبلها عقل سليم ولا تنسجم مع منطق علمي. فإذا كانت فلسطين عبارة عن أرض بلا شعب، فمعنى ذلك أن فلسطين بلد بلا تاريخ، وأنها لم ترى وجودا يهوديا أو غير يهودي في الزمن القديم. وبناء على ذلك تكون هجرة بني إسرائيل قديما لفلسطين أكذوبة، وأن ظهور المسيح في فلسطين كان أكذوبة، وأن قيام الرومان بسبي اليهود وتهجيرهم من فلسطين كان أكذوبة، وأن الفتح الإسلامي

كان أكذوبة، وأن الحروب الصليبية كانت أكذوبة، وأن صراع الفلسطينيين مع المنظمات الإرهابية اليهودية في عام 1948، وهو الصراع الذي يسميه الصهاينة "حرب الاستقلال"، كان أيضا أكذوبة. وحيث أن سجلات التاريخ تشير إلى أن كل تلك الأحداث وقعت على أرض فلسطين، فمعنى ذلك أن فلسطين لم تكن في أي يوم من الأيام أرضا بلا شعب، وأن مقولة الحركة الصهيونية هي الأكذوبة الوحيدة في هذه المعادلة. أما الشق الثاني من المقولة الذي يدعي بأن اليهود شعب بلا أرض، فإنه يتنافى مع طبيعة الإنسان وتطور المجتمعات الإنسانية تاريخيا، وذلك لأنه لا يوجد شعب أو شيء حي يعيش دون أرض، حتى البعوض والبكتيريا بحاجة إلى أرض أو أجسام تعيش فيها وتعتمد عليها، وهي أجسام بدورها لا تستطيع أن تعيش بدون أرض. وفي الواقع، ليس هناك مثال واحد في التاريخ الإنساني يدل على وجود شعب أو حتى شخص واحد بلا أرض، إلا في كتب الخيال العلمي التي تتحدث عن مخلوقات لم يرها إنسان. كما أن قدوم اليهود من بلاد مختلفة تتوزع بين أوروبا وآسيا وإفريقية ينفي عنهم صفة الشعب نفيا كاملا، خاصة بعد مضي أكثر من 2000 سنة على وقوع حكاية النفي والشتات التي لا يوجد دليل على صحتها.

طبعا، كنت اطرح تلك الأطروحة على الجمهور الأمريكي دون أن يكون لدي مرجع علمي واحد يدعم إدعاءاتي. كان منطق العقل والتاريخ والإصرار على تحدي الدعاية والإدعاءات الصهيونية هي المرجع الوحيد الذي اعتمدت عليه في حينه، وكان عدم وجود أي مرجع لدى دعاة الصهيونية لدحض إدعاءاتي هو في حد ذاته إثبات على احتمال صحتها. لم أدرك في بادئ الأمر مدى خطورة تلك الأطروحة وما كان فيها من أفكار وخيال وحقائق أو شبه حقائق، لكنني سرعان ما أدركت مدى خطورتها حين توقفت الدعوات فجأة، وتم إلغاء ثلاثة منها كانت قد وجهت لي قبل أن ألقى محاضرتي الثانية والأخيرة حول هذا الموضوع. إذ تم وضع اسمي على ما يبدو على كل القوائم السوداء التي تستهدف عزل كل من يتحدى المقولات الصهيونية، وتقوم بحرمانهم من حرية الرأي، تلك الحرية التي لم تعد بعد هيمنة الصهيونية على سياسة أمريكا الخارجية والكونغرس ووسائل الإعلام سوى أكذوبة أخرى. الآن، وبعد نشر كتاب الدكتور شلومو ساند وما جاء فيه من حقائق علمية، أدركت تماما لماذا حدث ما حدث معي، فقيادات إسرائيل وزعماء الحركة الصهيونية كانوا يعلمون تماما أن إدعاءاتهم محض أكاذيب، وأن أطروحتي تقف على أرضية منطقية، وتنطلق من خيال علمي وإنساني يقترب كثيرا من الحقيقة ويلمسها بشفافية دون أن يراها عن قرب.

إنني لم اكتب هذا الكلام ولم أنشره من قبل باللغة العربية، وذلك لقناعتي بأن الكثيرين من العرب سيختلفون معي في الرأي والرؤية، وأن غالبية عرب فلسطين، مسلمين ومسيحيين على السواء، يصرون على أن جذورهم تعود إلى الجزيرة العربية واليمن، ولذا يرفضون أن يقال عنهم أنهم ربما كانوا من أصول إسرائيلية. لكن إذا كان من الممكن أن يدعي بعض العرب أن الفراعنة ينتمون لأصول عربية، وكذلك العراقيون والسوريون القدامى، فلماذا لا يصح ذلك بالنسبة للإسرائيليين أيضا؟ لقد جاء الإسرائيليون من نفس المنطقة وعاشوا فيها قديما وأسسوا ديانتهم على أرضها. وكما قال الدكتور ساند وغيره من علماء لا يوجد شعب نقي في عالم اليوم. لقد مر على فلسطين غزاة كثيرون منهم اليونان والفرس والرومان، والعرب الفاتحين، والصليبون والأكراد الذين جاؤوا مع صلاح الدين، والمغول والأتراك والمماليك والبريطانيون وغيرهم، إضافة إلى الكنعانيين والإسرائيليين الذين سكنوا فلسطين في عهد التوراة والإنجيل. إن علينا أن ندرك أننا عربا ليس بسبب العرق أو الدين، وإنما بسبب الانتماء إلى العروبة كثقافة وهوية ولغة وتاريخ مشترك ومصير يبدو واحدا بالرغم من كل النزعات القطرية.

في حوالي منتصف شهر يونيو 2008، جمعتني مع الشاعر محمود درويش حفلة غداء عائلية في عمان. وخلال استعراضنا لما جاء في كتاب الدكتور ساند من حقائق علمية واكتشافات جديدة وما لها من تبعات على مجريات الصراع مع الكيان الصهيوني، أخبرني محمود درويش الذي كان يقرأ الكتاب بالعبرية، أن شلومو ساند كان في الستينات من القرن الماضي عضوا، مثل محمود درويش، في الحزب الشيوعي

الإسرائيلي، وأنه جاء لمحمود في عام 1967 ليخبره بأنه فقد الأمل في دولة إسرائيل، وأنه قرر الهجرة إلى فرنسة. وبالفعل هاجر الشاب شلومو ساند إلى فرنسة حيث درس التاريخ هناك وتخصص في تاريخ فرنسة الحديث وعاد بعدها إلى إسرائيل ليعمل أستاذا في جامعة تل أبيب. وفي ضوء ما سمعه محمود من ساند في حينه، كتب قصيدة كان موقف ساند وآرائه في الصهيونية موضوعها. وبسبب ما تركت تلك القصيدة من أثر عميق في نفسية الشاب شلومو ساند، قام بالإشارة إليها في مقدمة كتابه الذي قمنا بعرض بعض ما جاء فيه. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الانتماء للحزب الشيوعي في تلك الأيام كان السبيل الوحيد المتاح أمام عرب الداخل، أي ما يطلق عليهم عرب إسرائيل، للمشاركة في النضال ضد الصهيونية والمطالبة بحقوقهم المدنية، حيث كان الحزب شرعيا ونشاطاته مشروعة. وهناك بدأ الشاب محمود درويش رحلته النضالية من خلال كتابة الشعر الوطني، حيث وفر له الحزب منبرا للتعبير عن آرائه والدفاع عن وطنه والمطالبة بحقوق شعبه، ووسيلة يسافر معها إلى الخارج، مما أعطى محمود درويش فرصة للهروب من السجن الإسرائيلي، واللجوء إلى الوهم العربي بعد هزيمة حزيران 1967.

بناء على ما تقدم يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1. أنه ما دامت حكاية سبي اليهود وطردهم من فلسطين على يد الرومان أكذوبة، فإن حادثة الشتات لا بد وأن تكون أكذوبة أيضا.
2. ما دام أن الأصول العرقية ليهود أوروبا واليمن وإسبانيا والمغرب وغيرها لا تعود إلى الفلاحين اليهود الذين سكنوا في فلسطين في العهود القديمة، فإن اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين بدءا من أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين كانوا جزءا من الحركة الاستعمارية الاستيطانية الأوروبية وامتدادا طبيعيا لها. ولهذا ينقسم اليهود إلى أوروبيين أو اشكنازي، وشرقيين أو سفارديم.
3. إن اعتراف مؤسسي الحركة الصهيونية ومؤرخيها بأن غالبية أهل فلسطين من مسلمين ومسيحيين تعود جذور غالبيتهم إلى الفلاحين اليهود الذين عاشوا في تلك البلاد في قديم الزمان، يعني أن الوعد الإلهي الذي جاء ذكره في التوراة، وبالتالي الحق التاريخي في أرض فلسطين، لا يعود ليهود العالم، بل لعرب فلسطين دون غيرهم.
4. إن اعتراف الصهاينة الذين يدعون بأنهم من نسل بني إسرائيل، بأن غالبية عرب فلسطين من نسل اليهود القدامى الذين سكنوا في فلسطين، يعني أن الصهاينة قاموا بالاعتداء على أبناء عمومتهم، ومصادرة حقوقهم وقتل الكثيرين منهم وتشريدهم من وطنهم، وبالتالي فإن تصرفهم كان تصرفا استعماريا عدوانيا بحتا، لا علاقة له بتاريخ أو دين أو حق إلهي أو غير إلهي.

إن هذه الاستنتاجات المؤسسة على حقائق تاريخية وتحليل علمي مستفيض لكتب قديمة تستوجب تبني إستراتيجية عربية نضالية وإعلامية جديدة تقوم على النقاط الرئيسية التالية:

- انطلاقا من التوراة واستنادا لكتب التاريخ القديمة، يعود الحق التاريخي والإلهي في فلسطين لعربها من مسلمين ومسيحيين دون غيرهم.
- أن الوجود اليهودي الحالي في فلسطين هو وجود استعماري استيطاني، مما يستوجب التعامل معه على هذا الأساس، والعمل على استئصاله بالتعاون مع كافة قوى التحرر في العالم، ومطالبة تلك القوى بالنظر لدولة إسرائيل ويهود فلسطين والتعامل معهم من هذه الزاوية.

- أن الشتات بالنسبة لليهود تم على أيدي الأوروبيين، بدءا من اسبانيا وعبر بوليدة وروسيا وانتهاء بالنازية في ألمانيا، وذلك بسبب ما ارتكبته شعوب وحكومات تلك الدول من جرائم بحق مواطنيها من اليهود، وأن الشتات تواصل واتسع نطاقه بسبب قيام الحركة الصهيونية باستخدام أساليب الضغط والترهيب والترغيب لجر أعداد كبيرة من يهود العالم إلى فلسطين لاستعمار أرضها وانتهاك حقوق أهلها.
- أن أرض الشتات الوحيدة التي يعيش فيها اليهود اليوم، هي أرض فلسطين، وأن من حقهم العودة إلى أوطانهم الأصلية في أوروبا وغيرها من بلاد عربية وغير عربية.
- أن على الفلسطينيين العودة إلى مشروعهم الإنساني الذي يقوم على المطالبة بإقامة دولة ديمقراطية علمانية على أرض فلسطين التاريخية، يتعايش فيها اليهود والعرب على قدم المساواة، واعتبار ذلك أساسا للسلام وشرطا لاستمرار العملية السياسية، والتوجه في الوقت ذاته للنضال السلمي ذا البعد العالمي.

وهنا أتوجه بنداء لكل المؤسسات العربية المعنية بقضايا العلم والمعرفة والقضايا القومية بالحصول على حق ترجمة كتاب الدكتور شلومو ساند إلى لغات العالم الرئيسية، وفي مقدمتها اللغة الانجليزية والصينية والفرنسية والاسبانية والعربية والروسية واليابانية والألمانية. إن ترجمة هذا الكتاب وإيصال ما فيه من حقائق تاريخية تتعلق بوطننا ومستقبل أحفادنا لكل شعوب العالم، هي مسؤولية أخلاقية وسياسية لا يمكن التهرب منها ولا يجوز التغاضي عنها.

د. محمد عبد العزيز ربيع
www.yazour.com